## رواية السقوط في الشمس لسناء شعلان
## المرأة تصنع تمثالها الخالد وتتعبّده

بقلم: د.حكمت النوايسة/ الأردن

على مر العصور صنع الرجل المرأة ، صنعها كما يريد ، معشوقة خاصّة ، لا يحق للغير ( الرجل الآخر ) المساس بها ، شكّلها في أحلامه فكانت المعشوقة المستحيلة عند العذريين ، وشكّلها جسدا مرسوما بالكلمات كما عند المحققين ، وجسدا صخرا نفخ فيه من روحه ليكون من يد وروحٍ خاصّتين كما تقول الأسطورة، أما المرأة العربية فقد ظلّت المستهدفة في هذا النوع من الكتابة ، ولم تستطع أن تكون المستهدِفة ، ولم تستطع أن تكون الصانعة لحلمها كما الرجل . وظلّت المرأة موضوعا يُتحدث عنه لا ذاتا تتحدّث ، وفي أحسن حالاتها معشوقة تلتمّ حولها قصائد الرجل وأنفاسه ، ولا نرى منها إلا الخط العنوان لمشاعرها : أحبّت فلانا ، ولم تحب فلانا ، أما كيف تحب ؟ كيف تفكّر ؟ كيف تكون أقوى من الرجل ؟ فهذه مناطق كانت المرأة محرومة منها إلى سنوات قليلة مضت ، حيث بدأت المرأة تعبّر عن ذاتها من خلال السرد الروائي أو القصصي ، والشعر بشكل خجول إلى سنوات قريبة ، مع بعض الفلتات هنا وهناك التي لم يكن يعوّل عليها لإنشاء تيار أو تلمّسه .

أما كيف تصنع المرأة عاشقةً الرجلَ . فهذا ما تر
سمه بطلة رواية " السقوط في الشمس " لسناء
شعلان ، الصادرة عن دار اليازوري للنشر والتوزيع ، وتقع
في مئتين وتسع وتسعين صفحة من القطع المتوسط .
البطلة في هذه الرواية عاشقة بلا حدود ، عاشقة
مثقفة ، قوية ، توظف قوتها وثقافتها في صنع عشقها
الخاص ، عشق كتب عليه أن لا يكون محققا كما عند
العذريين الرجال ، وبقصدية واضحة ليس في الرواية اسم
للبطلة وليس للمعشوق اسم " أسماؤنا أسخف ما
نحمل ، أسماؤنا ليست لنا ، بل هي ملك
القدر،"[1]،فالأسماء شيء واقعي وقائعي ، وهي لا تريد
لهذه العلاقة أن تحمل من الواقع إلا ما يجعل القصّة
جميلة ، والأسماء التي لم نخترها لأنفسنا ليست هي
ما تمنيناه ، فنكتب أسماءنا كما نريد نحن ، وعلى ذلك
تسمي البطل وتسمي نفسها اسما اسطوريا
" لا تذكر اسمي ، اسمي هو وجودي معك ، أنا لا
أسمّيك بل لا أذكر اسمك ، أتعرف لمَ ؟
لم ؟
لأن اسمك يعني كل رجال الدنيا ، أنت رجال الدنيا
كلّهم في رجل واحد، لا رجال في دنياي من بعدك ،
عالمي أنت ، لا أسميك لأني أغار أن تلامس شفاهي
حروف اسمك وأنا أنطقه
حبيبتي ( أرتميس ) أي قدر بعث بك إلي ؟"[2]

---

[1] السابق ، ص 25
[2] نفسه : ص 95

"يا شمس حياتي يا ( هيلوس ) في أي بقاع الدنيا تختفي ؟ حبيبتك ( أرتميس ) قد أضناها الانتظار "[3]

الرواية مقدمة بطريقة الاسترجاع ، فالبطلة تعود بعد غياب عشرين عاما لترى حبيبها ، وفي محطة القطار تتذكر ( تسترجع ) أحداث الرواية كاملة ، تلك الأحداث التي دارت في ست سنوات ، وأبطالها طلبة دارسون في مؤسسة أكاديمية، حيث تدرس البطلة الفنون وتتعرف إلى البطل المعشوق حيث كان يعمل مشرفا أو معلما في تلك الأكاديمية ، بالإضافة إلى كونه فنانا ، وتعجب به، ويكون هو محط إعجاب كثيرات غيرها ، لكنّها بفيض الحب الهائل الذي تمنحه له تستطيع أن تكون الجزء الأهم في وقته ، وفي حياته ، وترسم من جهتها هالة روحية حول هذا البطل الذي لم يتكلّم إلا قليلا ، وتتولى هي الكلام، ورسم معالم العلاقة بينهما ، من خيالها ، ومن روحها العاشقة ، وتصنع وهمها العذري حوله، وتكتب ديوانها الخاص حوله ، فالرواية ديوان غزل تتخلله الأحداث ، والأحداث ، قصّة الحب الكبيرة ، المثيرة ، جاءت مرويّة من زاوية نظر واحدة ، وجهة نظر البطلة ، أما البطل ، فلم يعبّر عن نفسه إلا قليلا بما يخدم الرؤيا النهائية للرواية ، وقد كان ذلك عندما طلبت منه أن يساعدها في كفالة عيسى الشاب المناضل الذي يقبض عليه إثر أحداث تظاهرات في الأكاديمية ، فظهر لها كم هو مخالف للصورة التي رسمتها له في خيالها ،

---

[3] نفسه ص 99

إذ إنّه خذلها ، وأفصح عن شخصيّة إنسان جبان ، أناني ، لا يريد أن يعرض نفسه لأي تعب في سبيل أي إنسان ، واهتزت صورته على إثر ذلك ، لكنها لم تمّحي نهائيا ، وإنما نجد البطلة تغفر له مثل ذلك ، وتحاول أن تصنع له عذرا كي لا تمحي الصورة التي رسمتها في ليالي شوقها الغامر ، وتأمّلاتها المستمرّة ، وهنا تظهر ملامح جديدة للمرأة ، المرأة التي تغفر ، وتسامح ، ليس لأن الرجل يقنعها بكذب كان يسميه أبيض ، وإنما لأنها العاشقة ، التي تكون أقوى في فهم الآخر ، أو محاولة فهمه، ولأنها الصورة المقابلة لذلك الرجل الذي كان يرسم المرأة كما يشاء ، ويغفر لها إذا أخطأت فروسيّة وترفعا ، أو عشقا يعمي القلب .

تمر ست سنوات من العشق اللاهب ، من طرف أرتميس ، والعادي من قبل هيليوس ، وتنتهي عندما تتأكد البطلة أن هذا الحب لا يمكن أن يكون محققا، كما ينبغي للحب أن يكون في مجتمع الرواية ، وعندما يقرر البطل الزواج من ( شرف ) التي كانت البطلة تعرف بالعلاقة الجسدية بينها وبين حبيبها ، و تسكت تاركة مشاعر الغيرة تلتهب في صدرها ، ومترفّعة عن المقاضاة التقليدية في مثل هذه الحالة ، بل نرى البطلة تترفع على مشاعرها تجاه شرف ، وتتكفلها عندما تتعرض للاعتقال ، وتخرجها من السجن . وهو ملمح آخر نجده في المرأة العاشقة التي تريد أن تكون البطل الذي يرسم ملامح العشق الذي استأثر به الرجل.

تنتهي علاقة التواصل عندما تنهي ( أرتميس ) دراستها ، وتتأكد من رغبة ( هيليوس ) بالزواج من شرف التي تبيّن أنها حامل ، و لا تقف البطلة عند هذه العلاقة الوقفة المتوقعة كما أسلفنا ، و كانت على استعداد أن تنسى مثل هذه العلاقة المزعجة لها إذا قبل ( هيلوس ) أن يتزوجها . وعندما ينحاز إلى خطيئته ويقرر الزواج من شرف ، وتكون هي قد أنهت دراستها تقرر السفر الذي تغيب فيه عشرين عاما ، تتزوج خلالها وتنجب الطفلة التي كانت تتمنى أن تنجبها من الحبيب . تمر عشرون سنة دون أن تنسى ، وبعد السنوات العشرين تقرر أن ترى الحبيب مضحية بكل ما يمكن أن يمسّها جراء هذا القرار ، وتأتي لزيارته ، ويكون في سرير المرض الأخير ، وتكون (أحلام ) ، ابنته من ( شرف) عنده في المشفى الذي يعالج فيه ، وترحل بعد رؤيته الرحيل الأخير ، وتعود من حيث أتت .

هذه هي القصّة الحاملة ،( المتن الحكائي ) ، وفي الرواية مجتمع رواية متكامل ، فهناك الضابط الذي ( ) في أحدى الحروب مع الكيان الصهيوني ولم يورثه الشلل أي يأس أو قنوط ، فهو الحالم أبدا بالتحرير ، والمنتظر لساعته ، وهناك قصة فضيلة وكاظم العراقي الذي يعود للعراق لكي يبني نفسه ويعود ليتزوج فضيلة ، لكنها الحرب العراقية الإيرانية التي يستشهد فيها ، وتنتهي أحلام فضيلة ، وهناك مروة ، وأسرار ، وكل لها قصة وهن صديقات البطلة ، ومن يسكن معها في السكن الجامعي ، وهناك

قصّة أجود الذي يدرس الفلسفة في روسيا ، ويعود بأفكار اشتراكية مما يسبب قطيعة بينه وبين أهله ، ويرث عن أبيه متجرا للزهور ، ويعمل به بفلسفته الخاصة ويتحول إلى شخصيّة متدينة ، ويعرض على البطلة التي تعمل عنده مدة ثلاث شهور ، يعرض عليها الزواج وترفض رغم احترامها الشديد له ولأخلاقه ، لأنها تعشق ( هيلوس ) . والملاحظ على هذه القصص أنها جاءت واقعية ، ويمكن أن تحدث كل يوم ، إلا القصة الحاملة التي جاءت مغايرة لتلك القصص ، وقد استمدّت فضاءها من الأجواء الأسطورية التي يتثقف النص بها ، فمن قصيدة أوسكار وايلد عن البلبل العاشق ، إلى أسطورة اليونان عن الندى ، إلى أسطورة بيجماليون وجالاتيا ، إلى أسطورة اليونان عن شجر السنديان ، إلى أسطورة فيلمون وبسيس ، إلى أسطورة أرتميس ، و وأختمارت الأرمنية ، وطائر الفينيق الكنعاني ، وأورفيوس ، وكالجولا ، إلى قراءة في لوحة تمثل إله الخصب عند الكنعانيين ، فالنص هنا مثقف أسطوريا ، واجتماعيا ، إلى الدرجة المدهشة حقا ، ففي هذه الأجواء الأسطورية ، وهذا الحب الأسطوري نجد الفضاء الواقعي والوقائعي المحيّر ، ومن هنا نعود إلى ما تتبناه هذه القراءة ، من أن النص ( الرواية ) تمثل ديوان الشعر المضاد ، أو جالاتيا المضادة ، جالاتيا من زاوية نظر جالاتيا ، وليس من وجهة نظر بيجماليون ، فإذا كان بيجماليون قد حطّم التمثال بعد أن خشي أن يعشقه غيرة ، نجد جالاتيا المضادة تسمح بكل محبة لحبيبها أن

يعشق غيرها ، ويمارس حياته الزوجية مع غيرها ، و تتوسل إلى تلك التي سرقت الحبيب منها أن تسعده، أن توفر له ما تستطيع من السعادة ، هذا ما ترجحه هذه المقالة حول النشيد العام للرواية ، أما الشعرية الأكثر جلاء في هذه الرواية ، فهي شعرية القبض على اللحظة ، والتمسّك بها ، لحظة الوصل المفترضة ، التي لم تتحقق كما ينبغي لحب متاح له في ظروف الرواية الوصل ، الوصل الجسدي الذي لم يتحقق ، إلا كما قال العذريّون عنه ( شم ولم وقبل وبكاء ) ، تلك الشعرية هي التي جعلت هذه الرواية ديوان غزل ، غزل بالرجل ، وبالمرأة قليلا ، ورأينا الرجل هنا في المكان الذي رأينا في المرأة في الغزل العذري والصريح ، ونقول فيه ما قلناه في المرأة، والعشق عند العذريين:

"نه عشق آخر ، إنه عشق الرمز الذي يكتسب في غياب الحبيبة معطياتقادرة على إشباع الخيال العاشق ؛ لأنه صانعها الذي أراد لها أن تكون كما يشاء ، فهي جالاتيا الحلم ، وعشتاره ، وهي الحياة الجميلة ، حيث تحلق نجوم الخيال ، وتتناغى ربّات الجمال ، هناك ، أو هنا ، في هذا الغوص الجوّاني الذي تسمح به فسحة بعد الحبيبة ؛ فتخلع تحققها الواقعي كاملاً ، وتتحرر من كونها جسداً ترابا، لتصبح هناك ، أو هنا ، في الأعالي ، أو في أدغال الخيال الخصب ، امرأة خارجة من فيوضات أسطورية ، وتأملات شاردة راغبة في صياغتها كما تشاء "[4]إ. الرجل هنا هو المقصود ، فبطلة سناء تحمل على

[4] انظر : المرأة في الغزل العذري ، مقال لكاتب هذا المقال منشور في مجلة تايكي ، العدد 12 2003

عاتقها هذا الثأر الدفين ، وتلك الهواجس التي توارثتها المرأة فأفصحت عنها الآن في هذه الفسحة من الحرية والوعي الذي الذي أتاح للمرأة أن تكون كما هي ، لا كما تعارف عليها المجتمع الأبوي البطريركي ، ورأينا في هذه الرواية كيف صنعت تمثالها ، لكنها لم تحطمة بل جعلته يعيش كما يريد، تظلله سحابة من عشق ليس له حد .

أما البناء الفني للرواية ، فإنه قد جاء متماسكا بعد أن وقفنا على الجانب الموضوعي فيها ، وبرّرنا الرؤيا التي تقف وراء ذلك الغزل الكثير في الرواية ، والإلحاح على ذكريات البطلة مع حبيبها ، وقد جاء البناء الزمني للرواية ( الديمومة) بإتقان عال بين الاستباق والاسترجاع ، وقتل الزمن بالوصف ، وقد جاء الزمن المقتول بالوصف ليحتل المساحة الأكبر من الرواية وهذا ما ينسجم تماما مع ما ذهبنا إليه من أن الشعرية الأكثر جلاء هي شعرية القبض على اللحظة السعيدة، وشعرية الثأر الدفين من الرجل الذي رسم المرأة كما يشاء ، ولم يحبها كما تشاء ، فالوصف الجميل هنا للرجل ، هو وصف ثأري دفين ، وهو من ثارات شهرزاد الكثيرة عند الرجل ، أما الاستباقات ، فهي تلك التي وردت مبرّرة أيضا، فهي التي جاءت في نبوءات الفنجان التي كان يقوم بها الضابط المتقاعد (سعادة ) ، وتلك التوقعات التي كانت تأتي بوساطة الحدس حول الحبيب ، ويبرّرها رؤية الرواية النهائية ، وهي الإيهام بذلك الحب الذي لا يعرف الحدود . والتواصل الروحي الذي لا تحجبه الغيابات الصغيرة .

أما القطع الزمني ، فقد شمل ( عشرين سنة )لا ندري ما دار بها من أحداث، وقد كانت تلك السنوات العشرون ملخّصة بأسطر قليلة ، وهذا ما ينسجم مع هدف السرد الكامن ، ويضيء أكثر ما يعتم الغاية من القص، النشيد المحب .

أما الزمن المساوق ، فقد اشتملت الرواية على الكثير من الأجزاء السردية التي تمثله ، وقد كان ذلك يأتي عندما يراد أن نرى نحن القراء ، الحدث كما يحصل في الواقع ، ليكون الحكم لنا ، ومثال ذلك :

أتذهب للبصرة ، الإيرانيون يقصفونها بشّـدّة؟

يجب أن أكون إلى جانب أسرتي ، سأعمل وأكمل دراستي في جامعة البصرة، وأعود لأخطب فضيلة .

حقا ؟ ستتزوّجان ؟

عندما أكون جديرا بها ، صدّقيني يا .....

لقد قهرني الفقر ، وحرمني من كثير من الأمور ، قضيت أجمل أيام عمري أطارد لقمة العيش كي أعيل أسرتي ، قهرني الفقر ، لكنني سأنتصر عليه هذه المرة ولن أسمح له أن يحرمني من فضيلة .

لا تتأخر علينا .

اذكريني في دعائك .

سأفعل .

تهمس فضيلة بنبرة كسيرة : ألم يتصل بك ؟

أومئ برأسي نافية .

تقول : شرف.....

ما بها ، هل ماتت ؟

بل تزوّجت ....." [5]

ونلاحظ هنا كيف جاء هذا النمط في توزيع الزمن ، ليعزز الرؤيا ، فالرواية واقعية عندما يكون الحال في القصص المحمولة ، والواقعية المرسومة بعناية هنا، هي المجتمع الحاضن الذي أراد النص رسمه لتكون القصّة الأسطورية ذات مرجعية أرضية ، ومتحققات واقعية ، فأبطال الأساطير هم في الأصل بشر تأسطروا ثمّ تألّهوا.

أما الرؤية ، فإننا واجدوها موزعة بإتقان سردي ، فهناك الراوي كلي العلم المتداخل مع الرؤية (عن) مع التخطيب الروائي كما في " لقد أمضى سعادة معظم أيام شبابه إن لم تكن كلها في مجال العمل العسكري ،الذي ورث العمل فيه عن أبيه ، وعمه وبقي وفيّا لقضية أمته ، ولم يخذلها أبدا لا في ساحة المعركة ولا في المعتقل أمام تعذيب العدو ، ولكنّ الحسرة قهرته عندما اجتاح العدو الصهيوني كثيرا من الأراضي العربية في عام 1967 فأصيب بالشلل بعد ساعات قليلة من هذا الاجتياح فللأجساد أيضا لغة خاصّة في الغضب والرفض والحزن "[6]

وهناك الرؤية مع التي وردت كثيرا في الرواية ، وفي اللحظة التي يحتاج إليها السرد تماما ، وقد سبق تمثيلنا عليها عندما استشهدنا بمقطع من الرواية عند التمثيل على الزمن المساوق ( زمن السرد = الزمن

---

[5] الرواية ، ص 173

[6] الرواية ، ص 31

الواقعي ) . وإتقان توزيع الزمن والرؤية ليس هو إتقان اللعب به ، وإنما أن يكون هذا التوزيع مبررا نصّيّا ، والناظر في الرواية لا يعدم ذلك .

وإذا تذكّرنا في هذا المضمار أننا نقرأ رواية هي الأولى لصاحبتها ، فإننا نقرأ بين السطور موهبة روائية حقيقية ، وقدرة حقيقية على الإمساك بالعالم الروائي، مع رؤيا وهواجس كتابية تنبئ أننا سنرى لسناء روايات أخر تضيف شيئا إلى المكتبة الروائية .